ورقة بحثية

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

أجراس الزوال

مذبحة كنيسة سيدة النجاة في ذكراها الرابعة عشرة

د. سعد سلوم

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

أجراس الزوال

مذبحة كنيسة سيدة النجاة في ذكراها الرابعة عشرة

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط/ قسم الابحاث /الدراسات الاجتماعية

الاصدار / ورقة بحثية

الموضوع / التعليم والمجتمع، السياسة الداخلية والخارجية

د. سعد سلوم / أستاذ العلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية أسهم في إطلاق العديد من المبادرات الثقافية والفكرية في بغداد مثّل مبادرة الحوار المسيحي الإسلامي 2010، المجلس العراقي لحوار الأديان 2013، والمركز الوطني لمواجهة خطابات الكراهية 2018، ومعهد دراسات التنوع الديني 2019، ومعهد صحافة التنوع في العراق 2020. له 21 مؤلفا باللغة العربية عن ثقافة وفولكلور وتاريخ المكونات الاجتماعية.

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2024

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org
Since 2014

مقدمة: حدث مركزي

منذ الإبادة الجماعية للأرمن 1915- 1923، على يد الأتراك العثمانيين، التي راح ضحيتها نحو مليون إنسان، شرع المسيحيون ينزحون إلى الدول المجاورة، ويتركون أديرتهم وكنائسهم وقراهم. وفي أثناء الحكم الملكي في العراق، أرست سياسة الانتقام التي واجهها الآشوريون بسبب تعاونهم مع البريطانيين إبان الحرب العالمية الأولى، تقاليد العنف التي توّجت فيما بعد بأول انقلاب عسكري في العالم العربي (انقلاب بكر صدقي 1936). ودفع عدم الاستقرار السياسي منذ العام 1958 ومجيء العسكريين بعربة الانقلابات، إلى هجرات متتالية نحو ملاذات الاستقرار في الغرب، وكان تدمير كثير من قرى المسيحيين، وقصف كنائسهم، ونسف أديرتهم دافعاً للنزوح أو الهرب أو الهجرة وسط حرب الحكومة المركزية مع الأكراد منذ ستينات القرن الماضي.

وقبل أن يتيح عقد السبعينيات هامش استقرار نسبي، حفز اعتلاء صدام حسين للسلطة صراعات داخلية واقليمية، فدفع كل من يحمل خيار الاختلاف السياسي إلى الهرب من مواجهة محسومة مع قبضة استبداد حديدي، أتمّه دخول نظام البعث العلماني أتون الحرب الطاحنة مع إيران الإسلامية 1988-1980، فدفعت أفواجا جديدة من المسيحيين لاختيار الهرب من الصراع الإيديولوجي للكبار. وجاء جنون آخر في 1991 في حرب الخليج الثانية في اعقاب غزو العراق للكويت، وما اقترن بها من حصار اقتصادي، بضغوط جديدة -1990 2003، جعلت هجرة اللاعودة حتمية مع انطلاق الحملة الإيمانية في التسعينيات، التي مثلت خيارا سياسيا لأسلمة البلد في ضوء الصراع مع الغرب، فأعيد تعريف الأخير دينيا لكي يلائم متطلبات الصراع الذي كان يخوضه نظام البعث مع عالم أعدائه، فأصبح خيار المسيحيين أكثر تعقيدا وصعوبة في ظل نظام علماني يتأسلم.

ثم اتخذ عنف الجماعات الإسلامية المسلحة الذي انطلق ضد المسيحيين في عراق ما بعد 2003 طابعا مقيتا، مع ما يحمله هذا العنف من ثقافة الإقصاء الذمية، التي جعلت المسيحي «نصرانيا» و«ذميا»؛ أي إنسانا من درجة أدنى، مطلقة هجرة مسيحية عكسية إلى مناطق سكنهم الأصلية في سهل نينوى، وملاذات مؤقتة في كردستان العراق، ولتشهد البلاد أكبر هجرة للأقليات في تاريخ العراق المعاصر.

غير إن التحول المفصلي لم يبدأ مع غزو تنظيم داعش لمناطق تركز المسيحيين في الموصل وسهل نينوى عام 2014، فقد كانت مذبحة كنيسة سيدة النجاة 2010 هي الحدث المركزي الذي شكّل علامة الخطر الأكبر على الوجود المسيحي في العراق والشرق الأوسط.

تحفز الذكرى الرابعة عشرة للمذبحة بعض الاسئلة الملحّة: هل تحولت مذبحة كنيسة سيدة النجاة الى حدث منسي؟ هل كشفت الجريمة عن إن المسيحية أصبحت على شفا الانقراض في معظم أنحاء الشرق الأوسط؟ وعلامة على عقود من التدهور في الوزن الديموغرافي لأقلية متجذرة في المنطقة؟ وتحذيرا من محطات مقبلة، أكثر مأساوية، بعدها بأربع سنوات في الموصل وسهل نينوى؟ ما الدور الذي لعبته سياسة التدخل الخارجية الغربية وسياسات القمع الداخلية في هذا المسار التراجيدي لتدهور مكانة الشرق الأوسط في خريطة التنوع الديني العالمية؟ ما دلالات المسار المتصاعد المرتبط بمتوالية العنف العددية كل أربع سنوات: تفجير ضريح العسكريين في سامراء 2006، مذبحة كنيسة النجاة في بغداد 2010، غزو داعش لمحافظة نينوى 2014؟ كيف ينبغي للتاريخ أن يحكم على ما حدث للمسيحيين في الشرق الأوسط، وما الدروس التي يمكن تعلّمها من ديناميات الاستنزاف التدريجي للمكونات السكانية التي تشكل رأس مال بشري لا يمكن تعويضه؟ وأخيرا، ما الذي ينبغي فعله بعد فوات الآوان؟

موطئ قدم هش في تقاطعات التاريخ

على الرغم من القمع المنهجي، حافظت المسيحية على موطئ قدم هش - بل ومزدهر في بعض الأحيان - في أرض مهدها، حتى العقود القليلة الماضية من القرن العشرين. وكانت حقبة الثورات القومية وعسكرة بلدان المشرق منذ الخمسينيات جعلت المجتمعات المسيحية هامشية من ناحية دورها الريادي والسياسي بوصفها رافعة النهضة العربية منذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فضلا عن دورها الاقتصادي كأقليات ديناميكية وذكية.

غير إن التحولات العنيفة ما بعد غزو العراق 2003 وما بعد الربيع العربي 2001 وما بعد داعش 2014 قد أذنت بانحسار غير مسبوق وجعلت هامشية الجماعات المسيحية على مختلف الصعد، واضحة للعيان. ففي العراق، تقلص عدد السكان المسيحيين من أكثر من

مليون إلى أقل من مائتي ألف فقط. وفي سوريا، حيث صيغت كلمة «مسيحي» لأول مرة منذ أكثر من ألفي عام، فرّ ما لا يقل عن نصف مليون مسيحي، أي ثلث إجمالي المسيحيين. في مصر، حيث الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وهي من الكنائس الأرثوذكسية المشرقية القديمة قِدَمَ كنيسة روما نفسها، ويبلغ عدد أتباعها أضعاف عدد المسيحين في مجمل بلدان الشرق الأوسط، فقد هاجر اتباعها في موجات منذ اندلاع الثورة في مصر 2011، بعد أن حُشروا في متغيرات متسارعة بين النخب العسكرية التقليدية ونخب الاسلام السياسي الصاعدة.

الغزو الأميركي يفتح بوابات الجحيم

هذا التدهور العام في الوزن الديموغرافي لمسيحيي المنطقة أخذ مسارا متصاعدا بحدّة منذ أن انفتحت بوابات الجحيم على المسيحيين مع الغزو الأميركي للبلاد 2003، ومع لحظة تأسيسية للانقسام، تمثلت مؤسسيا في إطلاق نظام مكوناتي (نموذج مجلس الحكم العراقي) بقرار من سلطة الائتلاف الموحدة. إذ بدأ المسيحيون يتعرضون لدوامة من العنف المستمر وغير المسبوق في ظل غياب الدولة.

تمثل الهجوم الأول بسلسلة من القنابل والسيارات المفخخة (ست هجمات) أثناء قداس مساء الأحد بتاريخ الأول من آب 2004، في كنائس مدينتين تضمان التجمع الأكبر لمسيحيي العراق (بغداد والموصل). أسفرت الهجمات عن مقتل 12 شخصًا على الأقل وإصابة 71 آخرين. كانت كنيسة سيدة النجاة في الكرادة في قلب العاصمة العراقية من ضمن الكنائس المستهدفة، بوصفها كنيسة للسريان الكاثوليك (ثاني أكبر وزن ديموغرافي للمسيحيين في البلاد بعد طائفة الكلدان الكاثوليك). كان هذا هو الهجوم الإرهابي الأول في التاريخ المعاصر للمسيحيين في بلاد ما بين النهرين. الأمر الذي دفع مكتب سماحة السيد علي السيستاني (المرجع الشيعي الأعلى في النجف الأشرف) لإصدار بيان يشجب الهجوم -في سابقة تعد الأولى من نوعها ايضا- في اليوم التالي للهجوم. وجاء في البيان: «في مسلسل الأعمال الإجرامية التي يشهدها العراق العزيز وتستهدف وحدته واستقراره واستقلاله تعرّض عدد من الكنائس المسيحية في بغداد والموصل إلى اعتداءات آثمة أسفرت عن سقوط عشرات الضحايا الأبرياء بين قتيل وجريح كما تضرر من جرائها الكثير من الممتلكات العامة والخاصة

وإننا إذ نشجب وندين هذه الجرائم الفظيعة ونرى ضرورة تضافر الجهود وتعاون الجميع - حكومة وشعباً - في سبيل وضع حدّ للاعتداء على العراقيين وقطع دابر المعتدين نؤكّد على وجوب احترام حقوق المواطنين المسيحيين وغيرهم من الاقليات الدينية ومنها حقهم في العيش في وطنهم العراق في أمن وسلام نسأل الله العلي القدير ان يجنّب العراقيين جميعاً كل سوء ومكروه وينعم على هذا البلد العزيز بالأمن والاستقرار انه سميع مجيب».

وفي العام نفسه سجلت تقارير المنظمات الدولية والمحلية حالات من استهداف المسيحيين في البصرة، على يد جماعات في اقصى جنوب البلاد، وأجبرت المسيحيات على لبس الحجاب في تطور عكس مناخ التشدد الذي بدأ يغزو البلد من قبل التيارات الراديكالية السنية والشيعية على حد سواء.

البحث عن ملاذات آمنة

دفعت الاعتداءات الهجمات والتفجيرات الانتحارية وسياسات احتلال المجال العام من قبل قوى الارهاب المسلح وقوى الانفلات اللادولتي، الموجة الأولى من المسيحين للهجرة، وبدأت الأرقام المتصاعدة تثير القلق، إذ على الرغم من أن مسيحيي العراق لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من السكان، فإنهم باتوا يشكلون 20٪ من المواطنين الذين يغادرون البلاد كلاجئين.

وبدأ طابع الحياة اليومي يتراجع بالنسبة للفرد المسيحي من الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد إلى قيود على حرية ارتداء الملابس بالنسبة للنساء، بل وحتى ارتداء الجينز بالنسبة للرجال، وصولا إلى قيود على حريات كانت تعد من المسلّمات في بلد يعد من أكثر البلدان علمانية في الشرق الأوسط منذ أقل من عقدين. وأخذ العنف المتصاعد المثير للقلق مع التضييق على الحريات الشخصية وفقدان ايقاع الحياة اليومي الطبيعي يدفع المسيحيين للبحث عن خيارات بديلة وملاذات آمنة.

التحول الى أقلية متمركزة جغرافيا

على الرغم من تعرض المسيحيين في مناطق محددة من بغداد مثل الدورة الى عملية تطهير عرقي على يد تنظيم القاعدة دفعتهم لنزوح داخلي إلى مناطق أكثر أمنا داخل بغداد مثل الكرادة التي تعد من أبرز مراكز الطبقة الوسطى البغدادية. غير ان العنف الطائش والعشوائي وعمليات الخطف الانتهازي اخذت منحى خطيرا في ظل غياب الدولة وانشغال قوى الاحتلال الاميركي بمواجهة الارهاب في مناطق متعددة من البلاد. وغالبًا ما اختطف المسيحيون لإجبار الأقارب على دفع فدية مالية باهضة، وعلى نحو عرّض طبقات واسعة من الطبقة الوسطى لضغوط اقتصادية كبيرة وخسارة ممتلكاتهم ومدخراتهم بسبب من ذلك. وفي اب 2006، كانت هناك سلسلة من عمليات الاختطاف والقتل لنساء مسيحيات في بغداد. واستمرت وتيرة استهداف الكنائس التي وصلت قرابة 27 استهداف لمختلف كنائس الطوائف المسيحية خلال عامي (٢٠٠٤-٢٠٠٦)، وطالب مقاتلو تنظيم القاعدة دفع الجزية في منطقة الدورة التي يوجد فيها حي الآثوريين الشهير وكلية بابل الحَبرية، التي أصبحت معقلا للقاعدة بعد أن كان البعض يطلق عليها اسم «فاتيكان العراق» لاحتوائها على أكبر تجمع سكاني للمسيحيين في بغداد. وكان الوضع أشد سوءاً في محافظة نينوى والتي كانت تضم التمركز السكاني الأكبر للمسيحيين، ما قبل الهجرة الجماعية ليهود العراق (١٩٥٠-١٩٥١)، وأصبحت ثاني تمركز للمسيحيين بعد العاصمة التي تركز فيها أكثر من 60% من المسيحيين منذ ستينات القرن الماضي.

شهدت محافظة نينوى مثل العاصمة بغداد إعادة توزيع للمسيحيين بسبب العنف الدائر في المدينة، منذ الغزو الاميركي للبلاد وبعد هجمات ٢٠٠٤ على كنائس الموصل، واخذ مسار النزوح الداخلي يعيد رسم خريطة الجغرافية المسيحية المنتشرة باتجاه سهل نينوى على حساب مركز المدينة في الموصل، اذ اندفع المسيحيون من المركز إلى الأطراف بأعداد كبيرة متوجهين إلى القرى التي تضم السريان الأرثوذكس في برطلة والسريان الكاثوليك في قراقوش والكلدان الكاثوليك في القوش وكرمليس، وبدأت عينكاوه في أربيل عاصمة اقليم كردستان تتحول من قرية صغيرة الى جزيرة تضم مسيحيي وسط وجنوب البلاد والموصل شمال البلاد.

صعود خطاب المنطقة الآمنة

جاءت سلسلة من الهجمات عام 2008 لتعزز اعادة الانتشار الجغرافي وتحول المسيحيين إلى اقلية متمركزة جغرافيا. وبدأ جدل جديد عن تحويل سهل نينوى إلى منطقة آمنة بحماية دولية او جعلها محافظة مسيحية ضمن اقليم كردستان، وهو جدل جديد عكس تحولا في هوية المسيحي العراقي وتضاؤل حسّه بالجغرافية العراقية التي تمثل جذوره الأصلية، مع رسم ملامح الحدود السياسية المكانية في جغرافية صراعية بين بغداد واربيل في مناطق الأقليات الدينية والأثنية التي تتعايش منذ قرون في حيز تعددي غني. وبذلك تم ضمّ مناطق الأقليات الى حزمة المناطق المتنازع عليها، واصبحت هوية وولاء المسيحي جزء من صراع القبائل الإثنية الكبرى في عراق المكونات.

بدأت تصبح مناظر جثث تعود لمسيحيين مشهدا مألوفا في شوارع الموصل، واندفعت افواجا من الأسر للفرار من كوة النار بحثا عن ملجأ في الكنائس والقرى القديمة في سهل نينوى القريبة. أصبح هذا السهل العظيم ملاذا آمنا مؤقتا بحكم السيطرة الكردية عليه، ضمن صفقة تقوم على الأمن مقابل الأرض. انطبقت هذه الصفقة في ظل حكومة هشة، لا قدرة لديها على مواجهة قوى التمرد والارهاب في كل مكان، من سنجار شمال غرب الموصل وسهل نينوى في شرقها. لقد اصبحت هذه المناطق الطرفية شرق وغرب الموصل، تقع بحكم الأمر الواقع تحت نفوذ اقليم كردستان على الرغم من عائديتها الإدارية لمحافظة نينوى، ولم تقلب هذه الصفقة، رأسا على عقب، سوى احتلال داعش لهذه المناطق وتغير معادلة توازن القوى بعد تحريرها وخضوعها لسلطة المحررين الجدد.

في ١٣ اذار 2008، عُثر على جثة رئيس أساقفة الكنيسة الكلدانية في الموصل المطران بولس فرج رحو بعد نحو أسبوعين على خطفه من قبل مجهولين. وبذلك تعرض رجل دين مسيحي رفيع المقام للقتل بعد اختطافه يوم 29 شباط الماضي بعد أن هاجم مسلحون سيارته في الموصل وقتلوا سائقه واثنين من الحراس.

وقد عبر بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر عن حزنه العميق لوفاة المطران ونقل عنه متحدث باسم الفاتيكان أنه يأمل بأن «يدفع هذا الحادث المأساوي الجديد نحو تحريك الجميع وخصوصا المجتمع الدولي لإحلال السلام في بلد يعاني هذا القدر من الاضطراب».

وقد أعقب الجريمة تعرض منزل تابع لراهبات سريانيات كاثوليك للهجوم وقتلت راهبتان وأصيبت ثالثة بجروح خطيرة. الأمر الذي يشير الى أن استهداف نخب رجال الدين والمؤسسات الدينية أصبح هدفا.

وللمرة الأولى وبعد قرون طويلة من التسامح في ظل السلطات الإسلامية المتعاقبة وعقود من تأسيس المواطنة المتساوية في ظل الحكم الوطني الذي تأسس عام 1921 تمنح الأسر المسيحية خيار الموت أو التحول إلى الإسلام من قبل جماعات متشددة بدأت تفرض سطوتها على مناطق تركز المسيحيين في الموصل، وتحرك دوامة مستمرة من القتل تجبر عشرت الألاف على الفرار إلى سهل نينوى وملاذات آمنة في اقليم كردستان العراق.

من تفجير الضريح في سامراء الى مذبحة الكنيسة

في بداية ايلول 2010، أعلن القس تيري جونز في ولاية فلوريدا الأميركية أنه سيحرق القرآن في ذكرى أحداث الحادي عشر من ايلول 2010. (فيما بعد، القت الشرطة القبض عليه بتاريخ 11 ايلول 2013 بعد وصوله إلى منتزه في الولاية وبحوزته قرابة ثلاثة آلاف نسخة من القرآن كان يخطط لإحراقها).

لم يكن مسيحيو العراق يتخيلون أن مثل هذه الاحداث التي تقع على بعد الاف الكيلومترات سوف تترك تأثيرها على حياتهم وتهدد وجودهم، لذا بدأت الكنائس ومنها كنيسة سيدة النجاة بوضع حواجز خرسانية وأسلاك شائكة وبراميل نفط مملوءة بالإسمنت لاغلاق مدخلها استعدادا للأسوأ. واتذكر ما تخلل الأحاديث التي خضتها مع بطريرك بابل للكلدان عمانؤيل دلّي (رحمه الله) والعديد من الأباء مثل الاب بطرس حداد (رحمه الله) والأب يوسف توما، والتي كانت تعكس موجة عارمة من القلق من حدث التهديد بحرق القرآن، وما قد تجره من استهداف للمسيحيين على نحو يبين التأثير العابر للحدود لخطابات الكراهية، منذ نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد (ص) من قبل صحيفة يولاندس بوستن الدنماركية بنشرها في 30 ايلول 2005.

وفي أثناء قداس مساء الأحد المصادف 31-10-2010 هاجم ستة انتحاريين من جماعة الدولة الإسلامية في العراق كنيسة سيدة النجاة للسريان الكاثوليك في بغداد، وبدأوا في قتل المصلين. وأعلنوا من خلال قناة البغدادية رغبتهم في التفاوض وانهم كانوا ينتقمون «لحرق القرآن وسجن النساء المسلمات في مصر». وبذلك جذب التنظيم الجديد انتباها عالميا من خلال هذه العملية التي وجهت ضربة قاصمة لقدرة الحكومة التي تقبع مقراتها المركزية على مسافة قريبة من الكنيسة في مجمع المنطقة الخضراء.

يعود جذور هذا التنظيم الى عام 1999، حين بدأ أحمد فضيل نزال الخلايلة (أبو مُصعب الزرقاوي) بتنظيم جماعة التوحيد والجهاد («تنظيم التوحيد والجهاد») في الاردن، ثم حوّل اهتمامه الرئيسي إلى العراق بعد الغزو الاميركي عام 2003. وأعلن في نهاية 2004، مبايعة أسامة بن لادن من تنظيم القاعدة، وأعاد تسمية مجموعته باسم تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين، والمعروف أكثر باسم تنظيم القاعدة في العراق، أو تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. في عام 2006، أصبح تنظيم القاعدة في العراق جزءًا من منظمة أكبر مظلة هي مجلس شورى المجاهدين. وفي نهاية 2006، أعلن مجلس شورى المجاهدين عن تغيير تسميته الى تنظيم دولة العراق الإسلامية.

بعد ساعات من هجوم الارهابيين على الكنيسة اقتحمتها القوات الخاصة العراقية، وفي المواجهة التي تلت ذلك، قُتل عدد يقدر بقرابة ثمانية وخمسون من المصلين والقساوسة ورجال الشرطة والمارة وأصيب ثمانية وسبعون بجروح. كان هذا الحدث الأكبر الذي تمت تغطيته لحظة بلحظة منذ التفجير الذي استهدف ضريح الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء عام 2006، والذي فجر الفتنة بين كل من الشيعة والسنة، وجعل بغداد مسرحاً لأعمال التصفية الطائفية.

الاضواء الكاشفة للمأساة

جذبت المأساة الضوء لوجود مسيحيّ ألفيّ معرض للزوال، إذ كانت حدثا مفصليا على أكثر من صعيد وصدمة حفزت وعي المجتمع الأوسع، كما شجعت المجتمع الدولي على مراجعة حساباته بعد ان كان يركز على أولويات أخرى. فللمرة الأولى يبرز وعي عام بأهمية الوجود المسيحي في العراق وبدأ الحديث عن «مسألة الأقليات في العراق». في اعقاب الهجوم، وفي ظل مستوى من الجهل المنهجي واسع النطاق تلقيتُ مطالبات واسعة من جمهور المثقفين والصحفيين لإعادة نشر العدد الخاص من مجلة مسارات الخاص عن المسيحيين في العراق والذي صدر في ربيع عام 2009 . وهكذا اصدرت طبعة ثانية من العدد صدرت خلال أقل من شهر من الجريمة. وبدأ الصحفيون والفضائيات يكرسون برامجَ حوارية عن مستقبل الأقليات والمسيحيين بشكل خاص وشجع الصحفيين ووسائل الاعلام على اعادة اكتشاف المسيحيين بطوائفهم الاربعة عشر. وعقدت مؤسسة المدى للمرة الأولى ندوة حوارية خصصت لبحث مستقبل المسيحيين، ضمتني كمتحدث رئيس بمعية كل الدكتور يوسف توما والدكتور حيدر سعيد. لقد بدأت النخب العراقية تحصي الخسارات بحجم المجتمعات المنسية، وليس بعدد الضحايا الأفراد في جحيم القتل اليومي.

على صعيد دولي، اعلنت فرنسا، بعد يوم واحد من الهجوم، إنها ستقبل 150 عراقيًا، مع إعطاء الأولوية للجرحى في الهجوم. وقال دبلوماسي إن الجرحى سيتم إجلاؤهم على متن طائرة مستشفى ونقلهم إلى مستشفيات مختلفة في فرنسا. وخلال فترة قياسية تغيرت اولويات العديد من المانحين الدوليين للتركيز على موضوعات هجرة الأقليات وحقوقهم في الدستور وتعزيز مشاركتهم السياسية، نتيجة لذلك بدأت العديد من منظمات المجتمع المدني تغير أولوياتها وتركز في مشاريعها على حقوق الأقليات، استجابة لقلق من نهاية التنوع الديني بسبب دوامات العنف الطائش والعشوائي، وجرى الحديث عن ضرورة اصدار تشريعات لحماية التنوع الديني، وعقدت خلال أقل من سنة جلسة خاصة في القاعة الدستورية في البرلمان، وبرعاية بعثة الامم المتحدة في العراق قدمتُ فيها مع خبراء اخرين عناصر لمسودة اول قانون لحماية حقوق الأقليات في العراق (نشرت نسخة المسودة الأولى في كتابي التنوع الخلاق 2013). كما شجعت اطلاق مشروع جاد لحوار الأديان في العراق، بدأت ملامحه تتشكل مع مبادرة الحوار الإسلامي-المسيحي 2010 التي جمعت كل من مؤسسة مسارات في بغداد والآباء الدومنيكان في العراق ومؤسسة الامام الخوئي في

النجف الأشرف في عمل تكلل بعد ثلاث سنوات بتأسيس المجلس العراقي لحوار الأديان 2013 كأول إطار يضم ممثلي المكونات الدينية المختلفة في البلاد.

وعلى صعيد مواز سعت الحكومة العراقية آنداك الى إظهار اهتمامها بمصير المسيحيين وتخصيص مساعدات عاجلة. وكشف كتاب عاجل وسري عن توجيه مساعدات عاجلة الى «الجالية المسيحية» في بغداد. وبالرغم من أن تلك الفترة لم تكن موضة تسريبات الوثائق شائعة كما يحدث اليوم (تسريب الوثيقة كان مقصودا كنوع من اثبات اهتمام حكومي بالمسيحيين)، وعلى الرغم من عدم سطوة وسائل التواصل الاجتماعي آنذاك التي تحوّل أتفه حدث الى كرنفال فضائحي. إلا ان استخدام مصطلح «جالية» لوصف جماعة دينية ألفية متجذرة في البلاد كشف عن ضحالة قاموس إدارة التنوع لنخب الإسلام السياسي وضحالة معرفتها بتاريخ البلاد التعددي، ولم يكن أقل من فضيحة مدوية.

على صعيد قراءة التاريخ المعاصر، اعادت الجريمة جدلا قديما مستعاد حول سيناريو تفجيرات المعابد اليهودية في بداية خمسينيات القرن الماضي لدفع اليهود للهجرة من البلاد، وكانت المقارنات تركز على تأثير الجريمة على دفع من تبقى وتمسك من مسيحيي الوسط والجنوب للتفكير بالهجرة كخيار حتمي. وبالفعل شهدنا خلال الاسابيع التي تلت الجريمة أكبر هجرة لمسيحيي بغداد في تاريخها المعاصر (من 5-4 الاف أسرة من بغداد وحدها خلال أقل من اسبوعين). كان هذا مسار هجرة عكسي يعيد رسم خريطة التاريخ المعاصر في مفارقة مأساوية، إذ أن مسيحيي الموصل الذين تدفقوا الى بغداد في نهاية الخمسينيات بعد هجرة يهود العراق وبعد ثورة الشواف، بشكل خاص، عام 1959، وأحدثوا تحولا نوعيا في جو بغداد الثقافي وبيئته الاجتماعية والاقتصادية، عادوا في هجرة عكسية الى قرى وبلدات سهل نينوى، وملاذاتهم المؤقتة في عينكاوة ودهوك. منذ الآن أصبح الوجود المسيحي استثناء في الجزء العربي المسلم من البلاد.

لقد كشفت الجريمة عن واقع مرير يغذي قناعة تنمو باتساع الى أن مصير المسيحيين في البلاد الى زوال، وان هذه الهجرة سوف تكون الأخيرة، فهي «هجرة اللاعودة». وإن الاضطهاد وصل الى نقطة عنف بالغة، على نحو أصبح فيها وجود المسيحية ذاته مهدداً في المنطقة التي كانت ذات يوم موطنها الأصلي. وإن عشرات الاف من هؤلاء المسيحيين الذين بدأوا بالنزوح الى سهل نينوى او الى عينكاوه في اقليم كردستان او هاجروا خارج البلاد لا يملكون سوى القليل من الأمل في العودة إلى ديارهم، وبالنتيجة، ضاعت فكرة ان يشكل المسيحيون

مفتاح كسر دائرة العنف في البلاد. وأن من تبقى صامدا سوف يكون آخر علامة على تلاشي مسيحيي بلاد ما بين النهرين والمسيحية المشرقية التي تعود الى القرن الأول الميلادي. انه سيكون «المسيحي الأخير» في هذه التراجيديا الرافدينية.

الأشد ايلاما، كان فقد العديد من الاصدقاء والنخب التي لا يمكن تعويضها، وخسارتنا الأكبر في رحيل المؤرخ اللامع الأب بطرس حداد، الذي تأثر نفسيا بعد الجريمة. حملتُ له نسخة من الطبعة المعاد نشرها من مجلة مسارات والتي ضمت دراسته الأخيرة «مسيحيو بغداد بين الماضي والحاضر». وضعتها قرب رأسه في غرفته في مستشفى الراهبات في الكرادة، مع ما يحمله عنوانه من مفارقة لافتة. وذلك قبل ان تتدهور صحته بأيام، ويغمض عينه للأبد قبل ان يشهد مأساة أعقبتها بأربع سنوات.

من المذبحة في بغداد الى التطهير العرقي في نينوى

لم يتوقف استهداف المسيحيين خلال الأعوام اللاحقة لمذبحة كنيسة سيدة النجاة. فمع الاقتراب بالاحتفال بأعياد الميلاد في نهاية عام 2013، وقعت ثلاثة تفجيرات في مواقع مختلفة في العاصمة استهدفت مناطق تركز مسيحية وفي اسواق عامة ضمن مناطق التمركز الجغرافي في منطقة الدورة مع انفجار سيارة مفخخة بالقرب من كنيسة في المنطقة نفسها في نهاية صلاة عيد الميلاد بينما كان المصلون يغادرون الكنيسة. نتيجة هذه التفجيرات كان مقتل العشرات مع جرح المئات، فيما ما كان يسمى «فاتيكان المسيحيين» في بغداد.

وفي عام 2014 اجتاح تنظيم داعش مناطق مختلفة من البلاد، وغزا آخر معقل للمسيحيين في سهل نينوى، في عملية تطهير عرقية شاملة خلت على إثرها محافظة نينوى من المسيحيين للمرة الأولى في تاريخها.

لم يكن تسونامي داعش سوى الحلقة الأخيرة في استهداف المسيحيين والأقليات الدينية في بلاد ما بين النهرين، فقد كان من شأن الغزو الأميركي للبلاد أن يفتح بوابات الجحيم مع تصاعد مستويات العنف ضد المسيحيين وبقية الأقليات بناء على مسوغات مختلفة. ويتضح ذلك على نحو لا لبس فيه خلال دورات العنف المتجددة على التوالي في: 2006 بعد تفجير

ضريح الإمامين علي الهادي والحسن العسكري في سامراء في العراق، وعام 2010 في مجزرة كنيسة سيدة النجاة، وفي عام 2014 في غزو داعش وجرائمها التي استهدفت الحجر والبشر. كشفت هذه المتوالية العددية كل أربع سنوات عن طبيعة الصراع على السلطة والثروة، وحولت الدورات الانتخابية الموازية لدور العنف من آلية سلمية لتداول السلطة الى عملية إعادة تفاوض شاملة تتضمن تفجر نوبات عنف بالغة.

عند تحليل ديناميات العنف ضمن هذه المتوالية العددية كل أربع سنوات، بوصفها سببا جوهريا وراء هجرة المسيحيين، من المهم أن تأخذ بنظر الاعتبار مخرجات فشل النموذج الذي أسسه الأميركيون في إدارة التنوع في ظل غياب سلطة وطنية كابحة ومحايدة. وفي موازاة هذا التأثير المدمر كان هناك مسار اقليمي موازٍ: الإخفاق العام في تعزيز الوجود المسيحي في العراق والشرق الأوسط بسبب الصراع داخل الإسلام على هوية المنطقة والذي اتخذ بعدا طائفيا مقيتا منذ عام 2006 في العراق، وفي المنطقة بشكل عام منذ انطلاق ما يعرف بثورات الربيع العربي 2011.

فرنسيس في كنيسة سيدة النجاة

أتاح تحول الشرق الأوسط الى وجهة مهمة في الجغرافيا السياسية الجديدة للرحلات للبابوية، للبابا فرَنْسِيس إعادة تأسيس الحوار مع المرجعية الإسلامية المركزية في الأزهر والتقى عددا من كبار المسؤولين في مصر، كالرئيس (عبد الفتاح السيسي) وشيخ الأزهر (أحمد الطيب) في عام 2017 في أول زيارة منذ عام 2000 بعد زيارة البابا يوحنا بولس الثاني.

بعدها سافر الى العاصمة أبو ظبي عام 2019، ووقع مع شيخ الأزهر وثيقة الأخوة الإنسانية وأيضًا للاحتفال بالقداس البابوي الأول في شبه الجزيرة العربية مع العمال المهاجرين المسيحيين إذ يشكل العمال المهاجرون غالبية السكان في الخليج. كما زار المغرب حيث ألقى البابا فرَنْسِيس والملك محمد السادس خطابين في ساحة مسجد حسان بالرباط شددا فيهما على أهمية مكافحة التعصب والتطرف. وأصدرا نداءً يدعو إلى «أهمية المحافظة على مدينة القدس بوصفها تراثا مشتركا للإنسانية وبوصفها أرضا للقاء ورمزا للتعايش السلمي لاتباع الديانات التوحيدية الثلاث ومركزا لقيم الاحترام المتبادل والحوار». ثم شمل بلاد ما بين النهرين في جدول رحلاته، في أول زيارة لحبرٍ أعظم الى العراق استغرقت أربعة أيام عام 2021.

وفي اليوم الثاني من رحلته الرسولية سافر البابا فرَنْسِيس إلى أور الكلدان، مسقط رأس الديانات الرئيسية الثلاث-الإسلام والمسيحية واليهودية.

راهنت نخب مسيحية على أن زيارة قداسة البابا فرنسيس للبلاد قد تجذب أملا جديدا، وفي يوم الجمعة بتاريخ 5 آذار 2021 استحضرت الصلاة البابوية في كنيسة سيدة النجاة جروح الذاكرة المسيحية التي لا يمكن ان تشفى بسهولة، وكان اختيار قداسة البابا فرنسيس الصلاة في الكنيسة مع المواطنين المسيحيين ورؤساء الطوائف المسيحية وعلى رأسهم غِبْطَةِ البَطْرِيَرْك مار اغناطيوس يوسف الثالث يونان، بطريرك كنيسة السّريان الكاثوليك، وَغِبْطَة البَطْرِيَرْك الكاردينال مار لويس روفائيل ساكو، بطريرك كنيسة الكلدان الكاثوليك يحمل الأمل بانطلاقة جديدة من الرماد، إذ تظل هذه الكنيسة مثالا على فشل الدولة في حماية أقلياتها الدينية، وكان هذا الفشل طوال السنوات التي سبقت الاعتداء الإجرامي سببا رئيسا لهجرة معظم السكان المسيحيين خلال الأعوام الماضية، قال قداسته في خطابه مع الأساقفة والكهنة والرهبان والراهبات والإكليريكيّين ومعلّمي التعليم المسيحيّ في الكنيسة «إنَّ الصّعابَ جُزْءٌ مِن حَياتِكُم اليَوْمِيّة، أنتُمُ المُؤْمِنينَ العِراقيّين. فَقَدْ كانَ عَلَيْكُم وَعَلَى مُواطِنِيكُم، في العُقُودِ الأخِيرَة، أنْ تُواجِهُوا عَواقِبَ الحَرْبِ والاضْطِهاد، وَهَشاشَةَ البِنَى التَحْتِيّةِ الأساسِيّة، وأنْ تُناضِلُوا باسْتِمرار، مِن أجلِ الأمْنِ الاقتِصاديِّ والشَخْصيّ، والذي غالِبًا ما أدَّى إلى نُزُوحٍ داخِلِيّ وهِجْرَةِ الكَثيرين، بِما في ذَلِكَ بَيْنَ المَسِيحِيّين، إلى بُلْدانٍ أُخرَى في العالَم.» وأضاف: أَوَدُّ أنْ أَعُودَ الآن إلى إخوَتِنا وأخَواتِنا الذينَ لَقُوا حَتْفَهُم في الهُجُومِ الإرْهابي علَى هذهِ الكاتِدرائِيّةِ قَبْلَ عَشْرِ سَنَوات، والذينَ ما زالَتْ دَعْوَى تَطْويبِهِم مَفتُوحَة. يُذَكّرُنا مَوْتُهُم جَيّدًا أنَّ التَحْريضَ علَى الحَرْبِ وَمَواقِفَ الكَراهِيَةِ والعُنْفِ وإراقَةِ الدِماء لا تَتّفِقُ مَعَ التَعاليمِ الدِينيّة. وَأُريدُ أنْ أَذْكُرَ كُلَّ ضَحايا العُنْفِ والاضطِهادِ المُنْتَمينَ إلى مُخْتَلَفِ الجَماعاتِ الدِينِيّة. سَوْفَ أَلتَقي غَدًا في أور بِقادَةِ التَقاليدِ الدِينيّةِ المَوجُودينَ في هذا البَلَد، لِكَي نُعْلِنَ مَرَّةً جَدِيدَةً إيمانَنا بأنّهُ علَى الدِينِ أنْ يَخْدُمَ قَضِيّةَ السّلامِ والوَحْدَةِ بَيْنَ جَميعِ أبناءِ الله. وأُريدُ في هذا المَساء أنْ أَشْكُرَكُم علَى اجتِهادِكُم لأنْ تَكُونوا صانِعِي سَلام، داخِلَ جَماعاتِكُم وَمَعَ مُؤْمِني التَقاليدِ الدينيّةِ الأخرى، وأنْ تَزْرَعُوا بُذُورَ المُصَالَحَةِ والعَيْشِ الأَخَويِّ مَعًا، التي تَسْتَطيعُ أنْ تَقُودَ إلى وِلادَةِ رَجاءٍ جَديدٍ لِلْجَميع.»

التحرر من البراديغم المهيمن

في ختام هذه المحاولة الاستذكارية المتواضعة، ادعو النخب السياسية العراقية بشكل عام والنخب المسيحية بشكل خاص الى تغيير البراديغم بشأن مقاربة العلاقة بين المسيحيين والدولة. ونقطة البداية، على ما أعتقد تكمن في تحرير مقاربة الشأن المسيحي من منطق الجالية ومن منطق العلاقة بين الأغلبية والأقلية، ونمط المعرفة من خلال المأساة.

1-التحرر من منطق الجالية: هو منطق يهيمن على خطاب اليمين الغربي المتطرّف والذي يرى ان الوجود المسيحي طارئ في الشرق الأوسط وسط مجال إسلامي لا يقبل التعايش ويقدم حل الهجرة الدائمة كبديل أوحد، وهو-من وجهة نظري- منطق يتخادم مع منطق الاسلام السياسي (في نسخته المتشددة) الذي ينطلق من التصور ذاته عن الوجود المسيحي الطارئ في المنطقة. فالكتاب السري والعاجل من مكتب رئيس الوزراء بمساعدات عاجلة الى ما أطلق عليه (الجالية المسيحية في العراق)، فضح منطقا سائدا يمكن أن نطلق عليه (منطق الجالية)، بمعنى الوجود الطارئ غير المستدام. مثل هذا المنطق الذي يجعل من الوجود المسيحي الألفي والأصيل هامشيا في الشرق ويعادله بالوجود الاسلامي الذي يعود للعقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، يغذي اضطهاد المسيحيين في العالم العربي بوصفهم من بقايا الصليبيين أو حصان طروادة للتدخلات الغربية المزمنة في عموم بلدان المنطقة. كما انه يبرر اضطهاد الجاليات المسلمة والمهاجرين من الدول الإسلامية في الغرب على نحو يترك تأثيره على العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في العالم العربي، ويعزز مواقف اليمين الغربي المتطرف «الإسلاموفوبيا»، على نحو يقود إلى خطر تقسيم العالم على أساس صراع ديني إسلامي- مسيحي.

2-التحرر من خطاب الأغلبية والأقلية: تشكل سيادة منطق الكم والوزن الديموغرافي على ثقافة بلدان المنطقة في تقييم أهمية المجموعات السكانية المختلفة حجر عثرة في وجه المساواة بين الأفراد، الذين هم حاملو الحقوق الاساسية بغض النظر عما يسمى (المكونات) التي ينتمون اليها بفعل خلفيتهم الدينية أو الإثنية. فإذا كانت الأقلية في خطر، فإن الأغلبية في خطر، فهجرة المسيحيين والأقليات الدينية غير المسلمة من بلدان المنطقة ستغير هوية بلدانها على نحو مريع. ويعد قياس الأهمية بحسب الإسهام الحضاري وعدم عزل المسيحيين عن مواطنيهم المسلمين مدخلا مهما في قلب هذا المنطق والثورة عليه.

3-التحرر من منطق المأساة في مقاربة أوضاع المسيحيين: لقد سيطر «براديغم مهيمن» على الأدبيات التي تناولها المرسلون الغربيون والمغامرون والمستشرقون للشأن المسيحي المشرقي، وخاصة الذين لعبوا دورًا معادلًا لدور الأنثروبولوجيين والإثنولوجيين في القارة الأفريقية، ورسّخ تصوراتهم من خلال فكرة المأساة والمعرفة للصدمة، أي بعبارة أخرى ركزت تلك الأدبيات على فترة محددة عصيبة مر بها المسيحيون في السنوات الأخيرة من الإمبراطورية العثمانية، في ظل مسارَين مُهمّين للأحداث: مذابح المسيحيين الأرمن في شرق الأناضول، وتاليًا وبدرجة أقل مذبحة الأشوريين في عام 1933 في دولة العراق الفتية المستقلة عن الإمبراطورية العثمانية. ومثل هذا المسار يحجب اكتشاف واقع المسيحيين ودراستهم، عبْر علاقتهم بمجتمعاتهم المشرقية الأوسع. لذا، أصبح من الأهمية بمكان تقديم تحليل جديد لأوضاع المسيحيين في العراق والمنطقة، وإثارة سؤال إعادة اكتشاف مكانة المسيحيين ودورهم في المنطقة، من منظور بعيد عن التسيس، وعن المعرفة للصدمة والبراديغمات المهيمنة على صورة المسيحي في الأدبيات ووسائل الإعلام الغربية.

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org